

المحور الأول: السينما، صناعة أم فن؟

لم يتصور أحد ممن شهدوا ميلاد آلة التصوير (الكاميرا) بمن فيهم الأخوان لوميار "Auguste et Louis Lumière" إمكانية تخطيها حدود الاختراع المثير للإعجاب كنقلة مذهشة في عالم التطور التقني والصناعي لتتجاوز التصوير الآلي لتصبح فنا قائما بذاته متفردا ومتميزا عن باقي الفنون كالأدب، المسرح، الفن التشكيلي وغيرها. كما أثارت السينما منذ نشأتها جدلا واسعا تعلق بجوهرها انعكس على التنظير لها، انطلق هذا الجدل من التساؤل التالي: هل السينما صناعة أم فن؟

1- ماهية السينما

تعد السينما أداة تعبير جماهيرية نابعة من أسس النظم الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية التي تأثر على ذوقها، مفاهيمها وقيمها¹. ضمن هذا الإطار يمكن اعتبار الفيلم السينمائي وثيقة اجتماعية تحدد قوانين حركة المجتمع وطبيعة العلاقات أيضا بين الإنسان والمجتمع. أما الصورة فهي نوع من التأريخ لتطور العلاقات الاجتماعية والتي تعبر عن وجود ثقافة وحضارة ما في الواقع اليومي، تساهم في بناء أسس المجتمع، حيث تدخل ضمن وسائل المعرفة، لأنه يمكن تأليف المعرفة داخلها من خلال تركيب الصوت والصورة بتمثيلات الصورة². إضافة إلى ذلك، لا يمكن للسينما أن تكون خارج الصراع الاجتماعي أو خارج اللعبة السياسية، بل هي إعادة إنتاج للحقائق بقلوب فكري بواسطة وسائل تقنية ومالية خلال لحظة تاريخية معينة³.

عندما جاء الأخوان لوميير من مدينة ليون إلى باريس لعرض أول شريط مصور صامت لهما سنة 1859، دفع المتفرجون فرنكا فرنسيا واحدا للحصول على بطاقة الدخول وجلسوا أمام شاشة بيضاء. في تلك الفترة لم تكن السينما عندها إلا تسجيلا للواقع وما كان يهم الجمهور هو ذلك النقل الغريب لحياتهم اليومية على الشاشة، حيث كان العرض

¹ Séverine GRAFF , Le cinéma – vérité :films et controverses , Presses Universitaires de Rennes, Rennes, 2014, p. 19.

² نوار عبد الغني محمد ثابت، العرب في هوليوود بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة البزيت، فلسطين، 2010، ص ص:22.21.

³ محمد شويكة، السينما و السوسيولوجيا أي علاقة ممكنة، مجلة فكر و نقد، عدد 49-50، الرباط، 2002، ص 118.

يشبه الألعاب السحرية في السيرك. كما أن تدخل التقنية الميكانيكية آنذاك واشتراك عدد كبير من المتدخلين في العمل السينمائي جعل منه عملا صناعيا، تجاريا أكثر منه إبداعيا.

إن أول من أطلق تسمية الفن السابع على السينما هو الناقد الفرنسي الايطالي الأصل ريشيتو كانودو "Ricciotto Canudo" إذ أقر أن العمارة والموسيقى هما أعظم الفنون مع مكملاتهما من فنون الرسم، النحت، الشعر و الرقص. كما يرى كانودو أن السينما تجمع تلك الفنون الستة، إنها الفن التشكيلي في حركة تتضمن عناصر من طبيعة الفنون التشكيلية ومن طبيعة الفنون الإيقاعية في نفس الوقت ولذلك فهي فن سابع. كما دافع عن السينماوغرافيا منذ 1908 عندما كتب بالايطالية مؤلفه انتصار السينماوغراف "Triomphe du cinéma" ⁴.

أما الفرنسي أيتين سوريو "Etienne Souriau" فقد استخدم مصطلح "الفن السابع" في كتاباته، حيث اعتمده كوصف دقيق لمفهوم صناعة الفن. بالإضافة إلى أنه كان من المهتمين بعمل تصنيف جامع للفنون المعروفة معتمدا على الترتيب الزمني لظهور تلك الفنون وبه احتلت السينما المرتبة السابعة ومن ثم أطلق عليها الفن السابع، كما أشركها في ذلك التصنيف مع عنصر الإضاءة، إذ أنه لم يعتبرها أداة من أدوات السينما، بل نوعا من الفنون المستقلة بذاتها.⁵

⁴ أحد كامل مرسى، مجدى وهبة، معجم الفن السينمائى، منشورات وزارة الثقافة و الإعلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973، ص 313.

اطلع عليه: 2016/08/09 ، <https://www.limaza.com/%D9%84%D9%85%D8%A7%D8%B0%D8%A7->

يرى بعض النقاد والمؤرخين أن السينما قد حققت تفوقا ملحوظا على المسرح والأدب، فبالنسبة للمسرح فإنها تمتلك خاصية يفتقر إليها المسرح وهي قدرتها على تجاوز الزمان والمكان، إذ لا ينقضي عمرها بانتهاء العرض على خشبة المسرح. أما بالنسبة لتفوق السينما على الأدب فغالبا ما تكون السينما أكثر بساطة في التعبير عن مواضيعها المختلفة لكونها تعتمد على الصورة والصوت. فالصورة تمتلك خصائص اتصالية تتيح إمكانية فهمها من قبل أكبر عدد ممكن من المتلقين بدون أن يكونوا على دراية بالغة بمرسلها. هذا ما جعل أندري مالرو "André Malraux" ينبه إلى أهمية الأسلوب الخاص بالسينما في التأثير على المشاهدين، فبالنسبة له الأسلوب الذي تتخذه السينما في تقديم الشخصيات و الأحداث على الشاشة هو أسلوب يخصها لوحدها، تتشكل جمالياته من خلال إبداع خيال صناع الفيلم من مخرج، كاتب سيناريو، ممثلين ومصورين⁶. كما وصف أندري مالرو "André Malraux" الدور الذي تؤديه السينما بفن المهملات "le rôle d'un art poubelle" لأنها تجمع جميع نقائص الرواية⁷. كل هذا لا ينكر تأثير الأدب على عالم السينما منذ بدايتها الأولى، فلقد كان إيدوارد غريفيث "David Wark Griffith" أول كاتب قصة وشاعر يشق طريقه إلى عالم السينما منذ بدايتها الأولى ليخرج أول فيلم يبدأ من عنده تاريخ السينما في العالم كفن ينفرد بتقنية خاصة ووسيلة تعبير مميزة وهو فيلم مولد أمة "Birth of nation" الذي أنتج عام 1915. توقف جريفيث عن الإبداع في الأدب بعد ذلك، ولكنه لم يتوقف عن توظيف الإبداع الأدبي في السينما، فغالبية أفلامه اعتمدت على نصوص أدبية، كما عمل بجواره: فرانك وودز "Franck Woods" الذي يعد أول كاتب سيناريو. لم تبق السينما مجرد فرجة مجانية غرضها الإبهار الذي انطلقت من أجله و إنما أصبحت تنتمي إلى عالم الفن بفضل أساليب جمالية و تقنيات تعبيرية أساسها لغة سينمائية متشكلة من عناصر أيقونية متحركة، تشتغل في صنع الدلالة يشكل تنوعها جمالية فنية.

عندما نشأت السينما سبقها إلى الوجود المتسبب الأساسي في ظهورها ألا وهو الصورة الفوتوغرافية، فقد كانت بمثابة أولى البدايات في التشبه بالواقع. ظهرت في نهاية القرن 19 بعد سلسلة طويلة من التجارب الممتدة جغرافيا على

⁶أندري بازان، السينما الفرنسية من التحرير إلى الموجة الجديدة: 1945-1958، ترجمة: خليل كلفت، متوفر على الرابط:

www.m.ahewar.org/s.asp?aid=329111&r=0، اطلع عليه: 2016/08/09.

⁷André MALRAUX, Esquisse d'une psychologie du cinéma, présentation Jean-Claude LARRAT, édition nouveau monde, Paris, 2003, p.22.

مدار أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية من أجل تحريك الصورة الساكنة. فلقد ولدت وسط "كم" و "كيف" من المتغيرات العملية و الفلسفية التي أثرت في حياة الإنسان بجوانبها المختلفة و بالتالي أثرت في أنواع الفنون الإنسانية الأخرى، إلا أن هذه الفنون كانت تتمتع بتاريخ في ممتد زمنيا على مر العصور ماعدا السينما التي ظهرت و نشأت بدون أي تاريخ سابق لها و إنما ولدت كمجرد تطور تقني في المقام الأساسي، حيث لم تنشأ الصورة المتحركة كفن بل نشأت كآلة، لذلك فإن الصور المتحركة وليدة الاختراع و بذلك تكون عبارة " الصورة المتحركة" منطوية على كل من الآلة و الفن⁸.

لقد بدأت السينما كمجرد اختراع علمي (السينماتوغراف) في مجال البصريات والحركة الميكانيكية من أجل إمكانية التقاط صورة الحركة، أي كان لديها القدرة أيضا على تسجيل تلك الحركة على شريط الفيلم الخام، أي جهاز لديه القدرة على تسجيل الحركة بشكل بصري لا أكثر. إلا أن هذا الجهاز لم يكن يعني بأي حال من الأحوال أنه فن السينما حيث كان السينماتوغراف آلة فحسب لا وسيطا فنيا متكاملًا. لقد كان التمكن من تسجيل الصورة المتحركة ثم عرضها على الشاشة انجازا تقنيا ليس لاستخدامه آفاق واضحة ولا مبادئ جمالية.

كإجابة على التساؤل الذي انطلقنا منه يمكننا العودة إلى العبارة الشهيرة التي ختم بها أندري مالرو " André Malraux" كتابه "*Esquisse d'une psychologie du cinéma*". نصها ما يلي: "...أيضا، السينما صناعة" "par ailleurs, le cinéma est une industrie"، بحيث تجيب هذه العبارة عن التساؤل الذي شكل جدلا ارتبط بتطور مفهوم السينما، حيث تعد اختراعا علميا، طورها كيميائيون و أنشأها ميكانيكيون، هي الفن الوحيد الذي في أصلها و منذ ولادتها كانت عبارة عن صناعة و عندما نقول صناعة يعني بطبيعة الحال تجارة، كما أن للسينما شيء خاص هو أن مبدعها يأخذ بعين الاعتبار ذوق المتفرج حيث يتساءل طيلة مراحل إعداد العمل هل سوف يعجب المتفرج أم لا؟

⁸ ألبرت فولتون، السينما آلة و فن، ترجمة: عبد الحليم البشلاوي و آخرون، ط1، مكتبة مصر للمطبوعات، القاهرة، 1998، ص33.